المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القرْآن الكَريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

الهداية في تعظيم الله عز وجل
من خلال عرض النموذج اليهودي

اسم الباحث

أ.د / محمد بودبان

أ. د. محمّد بودبان

الهداية في تعظيم الله عز وجل

من خلال عرض النموذج اليهودي

توطئة

البحث الذي أودّ المشاركة به له نوعُ تعلُّقٍ بالمحور الثَّاني المعنون بـ: (**نماذج تطبيقيَّة في تعظيم الله تعالىٰ في ضوء الهدايات القرآنيَّة**)؛ حيثُ تهدف هذه المداخلة إلىٰ عرض الهداية في كلام الله تعالىٰ في القرآن العظيم فيما يتعلَّق بتعظيمه من خلال عرضٍ عكسيٍّ للمسألة؛ وهو الكلام عن بني إسرائيل وحالهم وقصصهم وسلوكاتهم تُجاه ربِّهم، والتي تصف بني إسرائيل -في كثير من محطَّاتهم التَّاريخية- بأنَّهم لم يقدُرُوا الله تعالىٰ حقَّ قدره.

وأمَّا عن كيفية تحقيق هذا المقصود فسيكون باستقراء مجموع الآيات القرآنية التي تتحدث عن خصال بني إسرائيل منذ أبيهم النَّبيِّ الصَّالح **يعقوب** عليه السلام إلىٰ زمان النَّبيِّ ﷺ؛ بل وإلىٰ ما أطلعنا عليه الله -سبحانه وتعالىٰ- ممَّا يكون من شأنهم في قابل الأزمان، وإلىٰ قيام السَّاعة.

ثمَّ بعد ذلك؛ أقوم بتصنيف تلك الآيات موضوعيًّا وتحليلها؛ لأجل استنباط الهدايات الواردة فيها.

وفي الخطوة الثَّالثة؛ أقوم في الجهة المقابلة بمقابلة النَّتائج وعرضها علىٰ نصوص التّوراة الموجودة اليوم بين أيدي اليهود؛ وهو ما سيوقفنا علىٰ نتائج تطبيقية متعلِّقة بالهداية القرآنية في مسألة تعظيم الخالق من خلال نموذجٍ عكسيٍّ.

المقدّمة

إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ قد قصَّ علىٰ نبيِّه ﷺ في القرآن الكريم من أخبار من سبق؛ يثبِّتُ به فؤادَهُ بما يريه من سنَّته في خلقه؛ وخاصَّةً فيما يتعلَّق بمن أرسل فيمن قبله من المرسلين؛ وما كان من أقوامهم من اتِّباعٍ أو تكذيبٍ، وإذايةٍ لهم؛ ومن شأن ذلك تحذيرُ أمَّته ممَّا أصاب الأقوام المكذِّبة باجتناب السير علىٰ خطاهم، وتكرار قيلِهِم أو عملهم. فإنَّها السَنَنُ، تصيب اللَّاحقَ كما أصابت السابق سلبًا أو إيجابًا.

وأكثرُ من قُصَّ خبرُهم هم بنو إسرائيل؛ جزءٌ من ذلك في الصَّالح من أمرِهم، وأكثرُهُ في سيِّئٍ صنيعٍ كثيرٍ منهم. وكان أكثرُ الكلام في قوم موسىٰ من الذين قالوا لربِّهم: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وجزءٌ آخر في الذين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ٥٢].

وهذا الاهتمام البالغ له آثارُه الواقعيَّة في المجتمع الإسلامي زمانَ النبيِّ ﷺ وإلىٰ أيامنا هاته، وإلىٰ قيام السَّاعة؛ بحيث ترتسم من خلاله نماذج التَّعايش، ونماذج الصِّراع، ونماذج الدّعوة، وعدالة الإسلام مع الآخر. وفوق كلِّ ذلك أنَّه يُعطي للمسلمين نموذجًا لما ينبغي أن يكونوا عليه؛ فقد خُطَّت لهم السّبيل، وقُرِّرت لهم؛ وحُذِّروا السُّبُل المنحرفة بهم عن السَّبيل، نظريًّا بالأمر والنَّهي، وبنماذج عمليَّة، منها نموذجٌ عكسيٌّ للمسألة، عمليٌّ تاريخيٌّ واقعيٌّ ببني إسرائيل، نموذج يستغرق تاريخَهم، وقابلَ أيَّامهم؛ بل وحالهم يوم القيامة مؤمِنَهم وقاسِطَهم. كما أنَّ إيراد نموذج بني إسرائيل في القرآن الكريم خطابٌ للحاضر منهم أن يدخلَ في المسلمين؛ فيؤتىٰ الأجرَ مرَّتين.

وإنَّ اتِّباع الهدي تعظيمٌ لمنزل الهدىٰ؛ والتنكُّب عنه تقصيرٌ في جنب الهادي، وانتقاصٌ من قدره الواجب له؛ ويزداد ذلك كلَّما قويت الإرادةُ في العصيان والعبث والتبديل والتغيير والافتراء والكتمان، وعدم القيام بما يوصي به ذو الجلال والإكرام.

وفي تاريخ بني إسرائيل وقصصهم في القرآن الكريم يتَّضح للمؤمن ذلك بشكلٍ بارزٍ جدًّا؛ وبأمثلةٍ تفصيليَّة متكاثرة؛ وذلك ما نسعىٰ إلىٰ إبرازه في هذا البحث؛ حيثُ نشفع كلامنا -مع كفاية القرآن العظيم- بالأمثلة من كتب بني إسرائيلَ التي يؤمنون بها؛ فيكون الشَّاهد عليهم الكتابُ المهيمنُ؛ ويخذلهم الكتاب الذي ءامنوا به وقد حرِّف وغيِّر.

١- وصف للإطار العام لنموذج بني إسرائيل في القرآن الكريم

عرَّفنا الله تعالىٰ بهم بأنَّهم ذرِّية النبيِّ العبد الصَّالح **إسرائيل**، الذي هو يعقوب عليه السلام، قال تعالىٰ: ، ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران]، قال الشّوكاني: «اتَّفق المفسِّرون علىٰ أنَّ إسرائيل هو يعقوبُ بن إبراهيم عليه السلام»(١).

وورد في (سفر التّكوين)(٢): «فقال: لا يدعىٰ اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنّك جاهدتَ مع الله والنّاس، وقدرتَ».

ثمَّ عرَّفنا الله تعالىٰ فضلَهُم؛ قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]، وأخبرنا تعالىٰ عن تذكير موسىٰ عليه السلام لهم بذلك: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة]، قال الشَّوكاني: «قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه الامتنان»(٣).

ثمَّ بيَّن الله تعالىٰ لنا سبب التفضيل؛ إذِ اللهُ تعالىٰ يفعل ما يشاء، ويؤتي فضله من يشاء وهو الواسع العليم، ذو الفضل العظيم، وهو طيِّب لا يقبل إلا طيِّبا، ولا يصطفي إلا التقيَّ والأتقىٰ، وهو مع الصالحين بتوفيقه وهدايته، ومحبّته ورعايته، فإذا كان قد فضَّل بني إسرائيل علىٰ عالمي زمانهم، فذلك لوجود الصَّالحين فيهم من أحبار وعلماء، وعُبَّاد وزهَّاد، قال تعالىٰ: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩].

وقد ورد في السنَّة النبويَّة المطهَّرة ما يدلُّ علىٰ أنَّهم أمَّةٌ يدخل منهم خلق كثيرٌ الجنَّة من بعد أمَّة النبيِّ ﷺ. روىٰ البخاريُّ عن ابن عبَّاس -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: **عُرضت عليَّ الأمم، فجعل النبيُّ والنبيَّان يمرُّون معهم الرَّهط، والنبيُّ ليس معه أحد، حتَّىٰ رُفِع لي سوادٌ عظيم، قلتُ: ما هذا؟ أمَّتي هذه؟ قيل: هذا موسىٰ وقومُه. قيل: انظر إلىٰ الأفق، فإذا سوادٌ يملأ الأفق، ثمَّ قيل لي: انظر ههنا وههنا في آفاق السَّماء، فإذا سوادٌ قد سدَّ الأفق، قيل: هذه أمَّتك، ويدخل الجنَّةَ من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب**(٤).

---

(١) محمَّد بن علي بن محمَّد الشَّوكاني: **فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدِّراية من علم التفسير**؛ اعتناء يوسف الغوش، (ط٤)، دار المعرفة: بيروت لبنان، ٢٠٠٧م، (٣/ ٢٣١).

(٢) تكوين (٣٢: ٢٨).

(٣) فتح القدير، مرجع سابق، (٦/ ٣٦٣).

(٤) البخاري (الطّب؛ باب من اكتوىٰ أو كوىٰ غيره، وفضل من لم يكتو: ٥٧٠٥).

ثمَّ أخبرنا اللهُ تعالىٰ أنَّه سُلبت منهم الخيريَّة، والله -عزَّ وجلَّ- يخبر أنَّ سلبه للنِّعمةِ لا يكون إلَّا إذا تغيَّرت القلوب من الحقِّ إلىٰ الباطل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال]. فالذي يغيِّرُ من نفسه من خيرٍ إلىٰ شرٍّ فلا يطمعنَّ أن يرفعه الله تعالىٰ إلىٰ مصافِّ الأتقياء، لا بنسبٍ ولا ادِّعاءٍ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

وقد ورد في كتبهم في (**سفر إرميا**): « ها إنَّكم متَّكِلون علىٰ كلام الكذب الذي لا ينفع: أتسرقون، وتقتلون، وتزنون، وتحلِفون كذبًا وتُبخِّرون للبعل؛ وتسيرون وراء آلهةٍ أخرىٰ لم تعرفوها، ثمَّ تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دُعِيَ باسمي عليه، وتقولون: قد أنقذنا؟!»[(١)].

وورد قبل ذلك في (**سفر التثنية**) في صورةٍ سَنَنِيَّة: «إذا ولدتم أولادًا وأولاد أولادٍ؛ وأطلتم الزَّمان في الأرض، **وأفسدتم**؛ وصنعتم تمثالًا منحوتًا صورةَ شيءٍ ما، وفعلتم الشرَّ في عينيِّ الرَّبِّ إلهكم لإغاظته؛ أُشْهِد عليكم اليومَ السَّماءَ والأرضَ أنَّكم تبيدون سريعًا من الأرض التي أنتم عابرون الأردنَ إليها لتمتلكوها. لا تطيلون الأيَّام عليها، بل تهلكون لا محالة؛ ويبدِّدكم الرَّبُّ في الشُّعوب، فتبقون عددًا قليلًا بين الأمم التي يسوقكم الرَّبُّ إليها»[(٢)].

وأخبرنا الله تعالىٰ أنَّه كان يُعاقب الذين هادوا، ويبتليهم لعلَّهم ينزِعون ويرجعون؛ فقد عاقبهم بتحريم بعض الطيِّبات مثلًا: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠].

وعاقب الذين كانوا مع موسىٰ عليه السلام، وجبنوا عن القتال بالتّيه مدّة أربعين سنة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة]، وذلك حينما قالت بنو إسرائيل حاشا رجلين: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]. وعاقبهم بتسليط

---

(١) إرميا ٧: ٨-١٠

(٢) تثنية ٤: ٢٥-٢٧.

عباده الأشدَّاء عليهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء].

وكتبُهُم التي بين أيديهم اليوم تروي من ذلك؛ فورد في **(سفر أشعيا)**: «اسمعي أيَّتُها السَّماوات؛ وأصغي أيَّتُها الأرض، لأنَّ الرَّبَّ يتكلَّم: ربَّيْتُ بنينَ ونشَّأتهم، أمَّا هم فعصوا عليَّ. الثّور يعرف قانيه، والحمار معلفَ صاحبه، أمَّا إسرائيلُ فلا يعرف، شعبي لا يفهم. ويلٌ للأمّةِ الخاطئةِ، الشَّعبِ الثَّقيلِ الإثمِ، نسلِ فاعلي الشَّرَّ، أولادِ مفسدينَ، تركوا الرَّبَّ، استهانوا بقُدُّوس إسرائيل، ارتدُّوا إلىٰ وراءٍ»[(١)].

وكذا ورد في **(سفر العدد)**: أنَّ الله تعالىٰ أهلك بالوباء أربعة عشر ألف وسبع مائة، عقوبةً لهم علىٰ تذمُّرهم علىٰ موسىٰ وهارون، وإليك النَّصَّ في ذلك: «فجاء موسىٰ وهارونُ إلىٰ قُدَّام خيمة الاجتماع؛ فكلَّمَ الرَّبُّ موسىٰ قائلًا: **أُطْلُعا من وسط هذه الجماعة، فإنِّي أفنيهم بلحظةٍ**. فكان الذَّين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفًا وسبع مئةٍ، عدا الذين ماتوا بسبب قورح»[(٢)].

وعلىٰ الرّغم من هذه العقوبات المتتالية، إلَّا أنَّهم كانوا لا ينزعون عن غَيِّهم إلَّا قليلًا، ولم يزالوا يتذمَّرون، فمثلًا بعد الحادثة السَّابقة الذِّكر، تمنَّوا أن لو كانوا أهلكهم الرَّبُّ كما أهلك أولئك، علىٰ أن يبقوا علىٰ حالهم مع موسىٰ وهارون عليهما السَّلام، ففي **(سفر العدد)** دائمًا نجد الآتي: «ولم يكن ماءٌ للجماعة، فاجتمع علىٰ موسىٰ وهارون. وخاصم الشَّعبُ موسىٰ، وكلَّموه قائلين: ليتنا فنينا فناءَ إخوتنا أمام الرَّبِّ. لماذا أتيتما بجماعة الرَّبِّ إلىٰ هذه البرِّيَّة لكي نموت فيها نحن ومواشينا؟ ولماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا إلىٰ هذا المكان الرَّديء؟ ليس هو مكان زرع وتينٍ وكرمٍ ورمَّانٍ، ولا فيه ماءٌ للشُّرب»[(٣)].

---

(١) أشعيا (١: ٢٤).

(٢) العدد (١٦: ٤٣٤٥).

(٣) العدد (٢٠: ٢٥).

ثمَّ يخبرنا الله تعالىٰ أنَّ بني إسرائيل استوجبوا بكلِّ ذلك الغضب واللَّعن -إلَّا من صَلُحَ منهم-؛ وممَّا أخبرنا: قولُهُ تعالىٰ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة]، وقال عزَّ من قائلٍ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران].

ولَعنت أنبياءُ منهم الكفرةَ منهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

وقد ورد في (إنجيل متَّىٰ): أنَّ المسيح قال لجمهور اليهود من الفرِّيسيين والكَتَبة :«ويلٌ لكم أيّها الكَتبة والفِرِّيسيون المراؤون، لأنَّكم تبنون قبور الأنبياء، وتزيِّنون مدافن الصدِّيقين، وتقولون: لو كنَّا في أيَّام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون علىٰ أنفسكم أنَّكم أبناء قتلة الأنبياء. أيُّها الحيَّاتُ أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنَّم. لذلك؛ ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبةً. فمنهم تقتلون، وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينةٍ إلىٰ مدينةٍ؛ لكي يأتي عليكم كلُّ دم زكيٍّ سُفك علىٰ الأرض من دم هابيل الصدِّيق إلىٰ دم زكريا بن برخيَّا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحقَّ أقول لكم: إنَّ هذا كلَّه يأتي علىٰ هذا الجيل»[(١)].

بل قد حاولوا قتل المسيح بن مريم عليه السلام: «حينئذٍ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشَّعب إلىٰ دار رئيس الكهنة الذي يدعىٰ: **قيافا**. وتشاوروا لكي يمسكوا يسوعَ بمكرٍ **ويقتلوه**؛ ولكنَّهم قالوا: ليس في العيد لئلا يكون شغبٌ في الشَّعب»[(٢)].

وبعد هذا الذي سقناه في الإطار العام لهذا النَّموذج؛ نتناول في العناصر المتبقية من هذه المداخلة الكلامَ عن انتفاء التَّعظيم من كثير من بني إسرائيل لله تعالىٰ، وَفق ما قصَّه الله تعالىٰ علينا في القرآن الكريم.

---

(١) متىٰ (٢٣ : ٢٩٣٦).

(٢) متىٰ (٢٦: ٣٥).

٢- انتفاء التعظيم بالكفر والإشراك

وبداهةً أنَّ الشِّرك بالله تعالىٰ هو أعظم إهانة للذَّات الإلهية، علىٰ النَّقيض تمامًا من واجب تعظيمه تعالىٰ؛ وقد أخبرنا الله تعالىٰ في القرآن الكريم أنَّ بني إسرائيل قومٌ كفر كثيرٌ منهم بالحقِّ إذا جاءهم؛ ككفرهم بالمسيح عليه السلام، والافتراء علىٰ أمِّه البتول: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء].

وكان حنينهم يزداد إلىٰ عبادة الأوثان كلَّما ارتقت بهم الأنبياء في مدارج التَّوحيد، بل حدث منهم ذلك وقد كانوا للتوِّ أُخرجوا بآيةٍ من مصر، من بعد أن كاد يُهلِكُهم فرعونُ وجنودُه، ومن بعد ما شاهدوا بأعينهم آيات الله الباهرات: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف]، فهم كما قال تعالىٰ فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة].

ومَّما في أيديهم من الكتاب اليوم ما يشهد عليهم؛ من ذاك :ما ورد في (**سفر العدد**) أنَّ الربَّ قال: «حتَّىٰ متىٰ يُهينني هذا الشَّعب؟ وحتَّىٰ متىٰ لا يصدِّقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟»[(١)].

وورد في (**سفر القضاة**) أنَّ بني إسرائيل من بعد النَّبيِّ **يوشع بن نون** عليه السلام وجيله؛ ارتدُّوا، فجاء فيه ما نصُّه: «وفعل بنو إسرائيل الشرَّ في عيني الرَّبِّ، وعبدوا البعليم، وتركوا الرَّبَّ إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهةٍ أخرىٰ من آلهة الشُّعوب الذين حولهم، وسجدوا لها، وأغاظوا الرَّبَّ، تركوا الرَّبَّ وعبدوا البعل وعشتاروت. فَحَمِيَ غضب الرَّبِّ علىٰ إسرائيل، فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم؛ وباعَهُم بيد أعدائهم حولهم، ولم يقدروا بعدُ علىٰ الوقوف أمام أعدائهم؛ حيثما خرجوا كانت يد الرَّبِّ عليهم للشرِّ كما تكلَّم الرَّبُّ، وكما أقسم الرَّبُّ لهم. فضاق بهم الأمر جدًّا»[(٢)].

---

(١) العدد (١٤: ١١).

(٢) يوشع (٢: ١١١٥).

وتكرَّرت منهم الرِّدَّة عدَّة مرَّات، في هذه الحقبة من تاريخ بني إسرائيل التي تدعىٰ بـ **"فترة القضاة"**، ولنتأمَّل هذه الفقرة من (**سفر القضاة**)، والتي تصف تلك الحقبة الزمانية من تاريخ بني إسرائيل: « وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم، بالذهاب وراء آلهة أخرىٰ ليعبدوها ويسجدوا لها؛ لم يكفُّوا عن أفعالهم، وطريقهم القاسية؛ فحَمِيَ غضبُ الرَّبِّ علىٰ إسرائيل»[(١)].

وقصَّةٌ أخرىٰ في (**سفر العدد**): «وأقام إسرائيل في شطِّيم؛ وابتدأ الشَّعب يزنون مع بنات موآب. فدعون الشَّعب إلىٰ **ذبائح آلهتهنَّ**، فأكل الشَّعب **وسجدوا لآلهتهنَّ**. وتعلَّق الشّعب ببعل فغور. فحمي غضب الرَّبِّ علىٰ إسرائيل. فقال الرَّبُّ لموسىٰ: **خذ جميع رؤوس الشَّعب وعلِّقهم للرَّبِّ مقابل الشَّمس، فيرتدَّ حُمُوُّ غضب الرَّبِّ عن إسرائيل**. فقال موسىٰ لقضاة إسرائيل: اقتُلوا كلَّ واحدٍ قومُهُ المتعلِّقين ببعل فغور»[(٢)].

وعوقبوا بالوباء : فـ «كان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفًا»[(٣)].

وثمرةُ هذا العرض من الهداية أو بيان الكلِّية أو الأصل القرآني، والذي يمكنُّنا من البناء عليه في زماننا هذا؛ هو أنَّ التوحيد اليهودي ليس في الواقع توحيدًا خالِصًا، بل شَابَهُ -ولا يزال- الدَّخَلُ منذ بداياته الأولىٰ؛ وهو ليس نموذجًا للاتِّباع، بل هو للحَذَر من القوع في مثله؛ فضلًا أن: أن ينخرط المؤمنون في مذاهبَ أو اتِّجاهاتٍ تجمع بينه وبين التَّوحيد الحقِّ الذي جاءنا في القرآن الكريم؛ كالقولِ بوحدة الأديان؛ أو الوصف بالأوصاف الجزافية، كأن يُقال: «الأديان التوحيديَّة الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام... »الخ.

٣- انتفاء التعظيم بالكلم في صفات الله

وقد اشتهر من قصص بني إسرائيل سوء قِيلهم بغير ما أدبٍ مع ربِّهم، بوصفه بما لا يتعارض مع التعظيم الواجب له؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

---

(١) القضاة (٢: ١٩٢٠).

(٢) العدد (٢٥: ١٥).

(٣) العدد (٢٥: ٩).

فعمومًا ديدن بني إسرائيل إساءة القولِ: ، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النساء]، ومنه قول طائفةٍ منهم ببنوَّة عُزيرٍ لله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وفي (التَّوراة) التي بين أيديهم ينسبون سوء الأدب مع ربِّهم لأنبياء -وحاشاهم من ذلك- وهم في الوقت ذاته ينتقصون من الله تعالىٰ؛ من مثلِ ما ورد في **(سفر الخروج)** أنَّ الله تعالىٰ أخبر موسىٰ أنَّ بني إسرائيل قد اتَّخذوا عجلًا، وهم يعبدونه، وقال له: «فالآن اتركني ليحمَىٰ غضبي عليهم، وأُفنيَهم، فأصيِّرك شعبًا عظيمًا»[(١)]

وههنا كلامٌ لا مُعتَرَض عليه؛ ولكنَّ الموقف الذي نسبوه إلىٰ موسىٰ عليه السلام كان عجبًا: «فتضرّع موسىٰ أمام الرَّبِّ إلهِهِ، وقال: لماذا يا ربُّ يحمىٰ غضبك علىٰ شعبك الذي أخرجته من أرض مصرَ بقوَّة عظيمة ويدٍ شديدة. لماذا يتكلَّم المصريون قائلين: أخرجهم بخبثٍ ليقتُلهم في الجبال، ويفنيَهُم عن وجه الأرض. **ارجع عن حموّ غضبك، واندم علىٰ الشرّ بشعبك. فندم الرَّبُّ علىٰ الشرّ الذي قال إنَّه يفعله بشعبه**»[(٢)].

فالعجب من تصوير عدم تأدب موسىٰ مع ربِّه -افتراءً عليه- يكاد ينقضي حين ترىٰ أنَّ الرَّبَّ لم يتقبَّل ذلك وحسب؛ بل ندم هو وتراجع= أمام سوء الكذب المفتَرىٰ.

وصورةٌ أخرىٰ كذلك تنسب لموسىٰ عليه السلام، بالشَّناعة ذاتها؛ وردت في **(سفر العدد)**، حين تذكَّر بنو إسرائيل طعامَهُم في مصر: السّمك والقثّاء والبطّيخ والكرّاث والبصل والثّوم، وقالوا: «من يطعمنا لحمًا». ورد بعدها الآتي: «فلمَّا سمع موسىٰ الشّعب يبكون بعشائرهم، كلُّ واحدٍ في باب خيمته، وحمي غضبُ الرَّبِّ جدًّا، **ساء ذلك في عيني موسىٰ**، فقال موسىٰ للرَّبِّ: لماذا أسأتَ إلىٰ عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمةً في عينيك؛ حتَّىٰ إنَّك وضعتَ ثقل جميع هذا الشَّعب عليَّ؟ ألعلِّي حَبَلْتُ بجميع هذا الشَّعب؟ أو لعلِّي ولدته، حتَّىٰ تقول لي: احمله في حضنك كما يحمل المربِّي الرَّضيعَ إلىٰ الأرض التي حلفت لآبائه؟ من أين لي لحمٌ حتَّىٰ أعطي جميع هذا الشَّعب؟ لأنَّهم يبكون عليَّ قائلين: أعطنا لحمًا لنأكل. لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشَّعب لأنَّه ثقيلٌ عليَّ. **فإن كنتَ تفعل بي هكذا، فاقتُلني قتلًا إنْ وجدتُ نعمةً في عينيك فلا أرىٰ بليَّتي**»[(٣)].

---

(١) الخروج (٣٢ : ١٠).

(٢) الخروج (٣٢ : ١١، ١٢، ١٤).

(٣) العدد (١١ : ١٠١٥).

وقريبًا ممَّا سبقَ: ما أوردوه في نفاذ إرادة العبد علىٰ الرَّب ممَّن هو نبيٌّ كذلك، والذي سكن في علِّيَّة لامرأةٍ أرملة، وفي تلك الفترة قبض الرَّب ابنَها: «فقال لها: أعطني ابنك! وأخذه من حضنها وصعد به إلىٰ العُلِّيَّة التي كان مقيمًا بها، وأضجعه علىٰ سريره، وصرخ إلىٰ الربِّ وقال: أيُّها الربُّ إلهي، أأيضًا إلىٰ الأرملة التي أنا نازلٌ عندها **قد أسأتَ بإماتتك ابنَها؟** فتمدَّد علىٰ الولد ثلاث مرَّاتٍ، وصرخ إلىٰ الربِّ، وقال: يا ربُّ إلهي، لترجع نفسُ هذا الولد إلىٰ جوفه. فسمع الربُّ لصوت إيليَّا، فرجعت نفس الولد إلىٰ جوفه. فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلِّيَّة إلىٰ البيت، ودفعه لأمِّهِ، وقال إيليَّا: انظري! ابنك حيٌّ، فقالت المرأة لإيليا: هذا الوقت علمتُ أنَّك رجل الله، وأنَّ كلام الربِّ في فمك حقٌّ»[(١)].

وورد كثيرٌ من سيِّء وصف ربِّ الأرباب؛ ومن ذلك مثالٌ ونختم به، وهو وصفه بالنَّدم: «ورأىٰ الرَّبُّ أنَّ شرَّ الإنسان قد كثُرَ في الأرضِ؛ وأنَّ كلَّ تصوُّرِ أفكارِ قلبِهِ إنَّما هو شرِّيرٌ كلَّ يومٍ. **فَحزِن الرَّبُّ أنَّه عمِلَ الإنسانَ في الأرضِ؛ وتأسَّفَ في قلبِهِ**»[(٢)].

وثمرة الهداية ههنا، أو الكلِّيَّة أو الأصل القرآني -بالإضافة إلىٰ الهداية التي تحدَّثنا عنها في توحيد العبادة- هي أنَّ تعظيم الله تعالىٰ يقتضي أن يكون بالطّريقة التي يخبر بها الله تعالىٰ عن اسمه ووصفه العظيمين؛ وألَّا يُنال جانبهما لا بزعم نيَّةٍ حسنةٍ ولا سيِّئها؛ وطريق التّعظيم ههنا أن يكون الخبرُ من العظيم العالم بذاته وصفاته وأسمائه؛ والنَّموذج اليهودي مليءٌ بإساءة الوصف للذَّات الإلهية؛ والانحرافُ فيه عندهم هو منازعة الله في ذلك من دون التأدُّب معه؛ ويمكن القولُ: إنَّ بعض ما جرىٰ في تاريخ علم الكلام كان أحيانًا فيه سيرٌ علىٰ خطاهم.

٤- انتفاء التعظيم بتضييع كلمات الله وكتابه وكتم العلم المستأمنين عليه

فإنَّ الله تعالىٰ أنزل الهدىٰ في الكتاب، واستحفظ الناس عليه؛ فيكون تضييعه أو كتمه أو التصرُّف فيه، تضييعًا لواجب تعظيم مُنزِّل الكتاب، قال تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[آل عمران: ٧٨].

---

(١) ملوك (١٧: ١٩٢٤).

(٢) تكوين (٦: ٥٦).

وإهانتُهم لما أنزل الله من الكتاب ناتجة عن خُلَّتين بيَّنهما الله تعالىٰ فيهم: إحداهما: **خيانة الأمانة**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]. والأخرىٰ: **نقض العهود**: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة].

وصار لبس الحقِّ بالباطل متصاحبًا لديهم مع كتم الحقِّ الذي يعلمون: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

وجاء في (السِّيرة) لابن هشام -وغيره- عن محمّد بن إسحاق رحمهما الله، قال: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجالٍ من قومه، قالوا: إنَّ ممَّا دعانا إلىٰ الإسلام -مع رحمة الله تعالىٰ، وهداهُ- لَمَا كنَّا نسمع من رجال يهود. كنَّا أهل شرك أصحابَ أوثانٍ وكانوا أهلَ كتابٍ عندهم علمٌ ليس لنا، وكانت لا تزالُ بيننا وبينهُم شرورٌ، فإذا نِلنا منهم بعضَ ما يكرهون، قالوا لنا: إنَّه تَقَارَب زمانُ نبيٍّ يُبعث الآن؛ نقتُلُكُم معه قَتلَ عادٍ وإرم. فكنَّا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم؛ فلمَّا بعث الله رسوله ﷺ؛ أجبناه حين دعانا إلىٰ الله تعالىٰ، وعرفنا ما كانوا يتوعَّدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنَّا به وكفروا به؛ ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩]»[(١)].

وأخرج البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ غلامًا يهوديًّا كان يخدُمُ النبيَّ ﷺ فمرض؛ فأتاه رسول الله ﷺ يعودُهُ؛ فوجد أبَاهُ عند رأسه يقرأ التَّوراة. فقال له رسول الله ﷺ: **يا يهوديُّ، أنشدك بالله الذي أنزل التَّوراة علىٰ موسىٰ: هل تجد في التَّوراة صفتي ومخرجي؟** قال: لا. قال الفتىٰ: بلىٰ والله يا رسول الله، إنَّا نجد في التَّوراة نَعتَكَ ومخرجك؛ وإنِّي أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّك رسولُ الله. فقال النبيُّ ﷺ: **أقيموا هذا من عند رأسه؛ وَلُّوا أخاكم**[(٢)].

---

(١) أبو محمَّد عبد الملك ابن هشام: **سيرة النبيِّ ﷺ**؛ تحقيق محمَّد محي الدّين عبد الحميد، (د ط)، مطبعة حجازي: القاهرة-مصر، ١٩٣٧م، (١/ ٢٣١).

(٢) البيهقيُّ، وقال ابن تيمية في (**الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح**)، (د ط)، دار ابن خلدون: الإسكندريَّة مصر، (د ت)، (٣/ ٣٠٤): «بإسنادٍ صحيح».

وأمَّا عن ثمرة ما سبق؛ فإنَّ فيه التحذير من الاستهانة بكلمات الله؛ وعدم القيام برعايتها وحفظها، وبثِّها، والدعوة إليها؛ فضلًا عن أن يُتصرَّف فيها – ولو بالنيَّة الظاهرة حسنةً- لا بالتبديل ولا بالتغيير، إضافةً أو حذفًا؛ أو كتمًا؛ أو ليًّا للِّسان؛ أو تغيير المرادِ مع إبقاء حرفه ونظمِهِ؛ أو تجريء أهل الباطل عليه... الخ.

٥- افتئات التعظيم من خلال التحايل على أمر الله تعالى ونهيه والافتراء عليه

والمعلوم من شأنهم أنَّهم أهل حيلٍ، ليحلُّوا حرامًا أو يحرِّموا حلالًا؛ وخير ما يشهد عليهم في ذلك قصّة أصحاب السَّبت، قال الله تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[الأعراف].

كما شهد الله تعالىٰ عليهم بأنَّهم أهلُ ربًا وأكلٍ لأموال النَّاس بالباطل، وأكلٍ للسّحت: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة].

كما إنَّه لا حرج عندهم في غير اليهوديِّ: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

وفي (الإنجيل) الذي بين يدي النَّصارىٰ اليوم: وصفٌ لهذه الطّبائع، ينسبونه للمسيح: «حينئذٍ خاطب يسوعُ الجموعَ وتلاميذَهُ قائلًا: علىٰ كرسيِّ موسىٰ جلس الكتبة والفرِّيسيُّون؛ فكلُّ ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه، وافعلوه. ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا؛ لأنَّهم يقولون، ولا يفعلون»(١).

وقرَّع كذلك بني إسرائيل في زمانه قائلًا: «لكن ويلٌ لكم أيُّها الكتبة والفرِّيسيُّون المراؤون؛ لأنَّكم تُغلقون ملكوت السَّماوات قدَّام النَّاس، فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الدَّاخلين

(١) متىٰ ٢٣: ١٣.

يدخلون. ويلٌ لكم أيُّها الكتبة والفرِّيسيُّون المراؤون، لأنَّكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلَّةٍ تطيلون صلواتكم، لذلك تأخذون دينونةً أعظم»[١].

ومن ثمرة ما سبق: أنَّ تعظيم الآمر الناهي لا يكون إلَّا باتِّباع الأمر والنّهي تسليمًا؛ وأشنعُ ما يمكن إتيانُهُ أن يتحايل العبد في التَّلاعب بالشَّريعة؛ وقد عُرف بعضُ ذلك في تاريخ بعض المشتغلة بالفقه؛ أو من يزيِّن للناس سُوء العمل بالتَّلاعبات التي تستخدم ما جاءت به الشريعة -وهي الحق- للتَّوصل إلىٰ عكس الأحكام، وقلب محرَّمٍ حلالًا؛ أو العكس.

٦- انتفاء التعظيم بإهانة رسله وقتلهم

وهذا مُبْتَنٍ علىٰ صفةٍ لزمتهم؛ وهي أنَّهم أشدُّ النّاس عداوةً لأهل الحقّ؛ قال تعالىٰ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]. وقتلُهُم للأنبياء معروفٌ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة]، وإذايتهم لموسىٰ عليه السلام ذات شهرةٍ جدًّا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب].

ونماذج إيذاء بني إسرائيل لموسىٰ عليه السلام علىٰ وجه التَّحديد في (التَّوراة) كثيرةٌ جدًّا، منها ما ورد في (**سفر الخروج**)[٢]: «وقال الرَّبُّ لموسىٰ : رأيتُ هذا الشَّعبَ، وإذا هو شعبٌ صُلب الرَّقبة». وفي (السفر) نفسه: «وكان الرّب قد قال لموسىٰ: قل لبني إسرائيل: أنتم شعبٌ صلب الرَّقبة، إن صعدتُ لحظةً واحدةً في وسطكم أفنيتُكم»[٣].

وورد أنَّ قورح وداثان وأبيرام وأون مع جماعاتهم، شقُّوا عصا الطَّاعة علىٰ موسىٰ عليه السلام، وممّا ورد في (**سفر العدد**): «فأرسل موسىٰ ليدعو داثان وأبيرام ابني ألياب؛ فقالا: لا نصعد، أقليلٌ أنَّكَ أصعدتنا من أرضٍ تفيض لبنًا وعسلًا، لتميتنا في البرِّيَّة حتَّىٰ تترأَّس علينا ترؤسًا؟ كذلك لم تأتِ بنا إلىٰ أرض تفيض لبنًا وعسلًا، ولا أعطيتنا نصيبَ حقول وكروم. هل تقلع أعين هؤلاء القوم؟ لا نصعد»[٤]. وكان عاقبة هؤلاء أنِ ابتلعتهم الأرض وأموالهم، ثمّ انطبقت عليهم، كما ذكروا.

---

(١) متىٰ (٢٣: ٢٩٣٦).
(٢) الخروج (٣٢: ٩).
(٣) خروج (٣٣: ٥).
(٤) العدد (١٦: ١٢١٤).

وجاء عندهم في (**سفر الخروج**) حين ضاق ببني إسرائيل أن لا يجدوا ما يأكلون: «فتذمَّر كلُّ جماعة بني إسرائيل علىٰ موسىٰ وهارون في البريَّة. وقال لهما بنو إسرائيل: «ليتنا مِتنا بيد الرَّبِّ في أرض مصر؛ إذ كنّا جالسين عند قدور اللَّحم نأكل خبزًا للشّبع؛ فإنَّكما أخرجتمانا إلىٰ هذا القَفر لكي تُميتا كلَّ هذا الجمهور بالجوع»[1].

ونصٌّ آخر في (**سفر العدد**): «وارتحلوا من جبل هور في طريق بحر سوف ليدوروا بأرض أدوم؛ فضاقت نفس الشَّعب في الطَّريق. وتكلَّم الشَّعب علىٰ الله وعلىٰ موسىٰ قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البريَّة؟ لأنَّه لا خبزَ ولا ماءَ؛ وقد كرهت أنفسنا الطَّعام السّخيف. فأرسل الرَّبُّ علىٰ الشَّعب الحيَّات المحرقة، فلدغت الشَّعبَ، فمات قومٌ كثيرون من إسرائيل»[2].

واختلافُهُم علىٰ أنبيائهم، وتعنُّتهم الشَّديد في القرآن الكريم معلومٌ كذلك؛ ولو كان المثل الوحيد لذلك قصَّةُ البقرة التي سُمِّيت بها السّورة التي تتلو (الفاتحة) لكفىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة].

وكُفرُهُم زمان النَّبيِّ ﷺ به وبنسبة الكفر لسليمان في آنٍ معًا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة].

---

(١) الخروج (١٦: ٢٣).

(٢) العدد (٢١: ٤٦).

قال الشوكاني: «ولم يتقدم أنَّ أحدًا نسب سليمان إلىٰ الكفر، ولكن لمّا نسبته اليهود إلىٰ السّحر صاروا بمنزلة من نسبه إلىٰ الكفر؛ لأنَّ السّحر يوجب ذلك، ولهذا أثبت الله -سبحانه- كفر الشّياطين»[(١)].

وقد ورد في (الكتاب المقدَّس) عندهم في (سفر الملوك): أنَّ خاتمة سليمان عليه السلام كانت خاتمة كفرٍ وسوء -افتراءً عليه، وعلىٰ ربِّهِ-، قالوا: «وأحبَّ سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميَّات وصيدونيَّات وحثِّيات، من الأمم الذين قال عنهم الرَّبُّ لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنّهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمانُ بهؤلاء بالمحبَّة، وكانت له سبع مئة من النِّساء السيِّدات، وثلاث مئة من السَّراري، فأمالت نساؤه قلبَه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أنَّ نساءَه أملن قلبه وراء آلهةٍ أخرىٰ؛ ولم يكن قلبُهُ كاملًا مع الرَّبِّ إلهِهِ كقلب داود أبيه. فذهب سليمانُ وراء عشتورث إلهة الصَّيدونيِّين، وملكوم رجس العمُّونيين. **وعمل سليمان الشَّرَّ في عينيْ الرَّبِّ، ولم يتَّبع الرَّبَّ تمامًا كداود أبيه**. حينئذٍ بنىٰ سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين علىٰ الجبل الذي اتُّجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمُّون؛ وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبَّات اللَّواتي كُنَّ يوقدن ويذبحن لآلهتهنَّ. فغضب الرَّبُّ علىٰ سليمان؛ لأنَّ قلبَه مال عن الرَّب إله إسرائيل الذي تراءىٰ له مرَّتين. وأوصاه في هذا الأمر ألا يتَّبع آلهة أخرىٰ، فلم يحفظ ما أوصىٰ به الرَّبُّ. فقال الرَّبُّ لسليمان: من أجل أنَّ ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإنِّي أمزِّق المملكة عنك تمزيقًا، وأعطيها لعبدك»[(٢)].

وافتُرِيَ علىٰ هارون مثلُ ذلك؛ وأنَّه هو من صنع العِجل لبني إسرائيل، بل وبنىٰ له مذبحًا؛ كلُّ ذلك في (**سفر الخروج**): «ولـمَّا رأىٰ الشَّعب أنَّ موسىٰ أبطأ في النُّزول من الجبل، اجتمع الشَّعب علىٰ هارون، وقالوا له: قم، اصنع لنا آلهةً تسير أمامنا؛ لأنَّ هذا موسىٰ الرَّجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذَّهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها.. فنزع كلُّ الشَّعبِ أقراطَ الذَّهب التي في آذانهم، وأتوا بها إلىٰ هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّره بالإزميل، وصنعه عِجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلمَّا نظر هارون بنىٰ مذبحا أمامه، ونادىٰ

(١) فتح القدير، مرجع سابق، (١/ ٧٩).
(٢) ١ملوك ١١: ١١١

هارون، وقال: غدًا عيدٌ للرَّبِّ. فبكَّروا في الغد، وأصعَدُوا محرَّقَاتٍ، وقدَّموا ذبائح سلامةٍ. وجلس الشَّعب للأكل والشُّرب، ثمَّ قاموا للَّعب »[١].

ومن الفظائع: أنَّهم قالوا: إنَّ هارون عرَّىٰ الشَّعبَ الذي كان يرقص حول العجل، حيث قالوا: «ولـمَّا رأىٰ موسىٰ الشَّعب أنَّه معرَّىٰ؛لأنَّ هارون كان قد عرَّاه للهُزء بين مقاوميه»[٢].

وأساءوا إلىٰ لوطٍ عليه السلام بشناعاتٍ لا توصف؛ بأنَّه قد زنىٰ بابنتيه، أو هما زنتا به، البكر اليوم والصُّغرىٰ في غدها، وردت القصَّةُ في (**سفر التَّكوين**): «وصعد لوطٌ من صوغر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنَّه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصَّغيرة: أبونا قد شاخَ، وليس في الأرض رجلٌ ليدخل علينا كعادة كلِّ الأرض. هلمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحيي من أبينا نسلًا. فسقتا أباهما خمرًا في تلك اللَّيلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أنَّ البكر قالت للصَّغيرة: إنِّي قد اضطجعت البارحة مع أبي؛ نسقيه خمرا اللَّيلةَ أيضًا، فادخلي اضطجعي معه، فنُحيي من أبينا نسلًا. فسقتا أباهما خمرًا في تلك اللَّيلة أيضًا، وقامت الصّغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلىٰ اليوم. والصَّغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه بنْ عمِّي، وهو أبو بني عمُّون إلىٰ اليوم»[٣].

وثمرة ما سبق أن يُدرك العبد أنَّ إهانة من أرسله العظيمُ ليست إهانةً فقط للمرسلين، وإنَّما للذي أرسلهم؛ وإذايتهم منكرةٌ، وقتلهم أشنع الشّنيع؛ وقد كان ذلك من اليهود مع معرفتهم للحقّ الذي جاءتهم به الرُّسل؛ ووجه الحذر أن يخالف المؤمنون هدي النَّبيِّ ﷺ، أو عدم إنزاله المنزلة التي رفعه الله تعالىٰ إيّاها؛ وعدم الرَّغبة عن سنَّته، والوحي الذي جاء به؛ وهي مسائل عرفها كذلك التَّاريخ الإسلاميُّ، ووقعت من مسلمين.

٧/ انتفاء التعظيم بالإضلال والإفساد في الأرض.

والحامل علىٰ إفسادهم في الأرض والإضلال أربعةُ أمورٍ رئيسة: الحسد، والبغي، وقسوة القلب، والجبن؛ فأمَّا الحسد؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩].

---

(١) الخروج (٣٢: ١٦).
(٢) الخروج (٣٢: ٢٥).
(٣) التّكوين (١٩: ٣٠٣٨).

قال الشوكاني: «فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود علىٰ فتنتهم، وردِّهِم عن الإسلام، والتشكيك عليهم في دينهم»[(١)].

وأمَّا البغيُ؛ فمن قوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [البقرة: ٩٠].

أخرج الطبريُّ في (تفسيره) عن السُّديِّ: ﴿بَغْيًا﴾، قال: بغوا علىٰ محمّد ﷺ، وحسدوه، وقالوا: إنَّما كانتِ الرُّسُلُ من بني إسرائيل، فما بالُ هذا من بني إسماعيلَ؟ فحسدُوهُ[(٢)].

وأخرج البخاريُّ عن أنسٍ: أنَّ عبد اللهِ بنَ سلَّامٍ بلَغَهُ مقدَمُ النبيِّ ﷺ المدينةَ، فأتاه يسأله عن أشياءَ؛ قال: إنِّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلَّا نبيٌّ: ما أوَّل أشراط السَّاعة، وما أوَّل طعام يأكله أهلُ الجنَّةِ، وما بالُ الولد ينزع إلىٰ أبيه أو إلىٰ أمِّه؟ قال: «**أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا**»، قال ابن سلام: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، قال: «**أمَّا أوَّلُ أشراط السَّاعة؛ فنار تحشرهم من المشرق إلىٰ المغرب. وأمَّا أوَّل طعام يأكله أهل الجنَّة؛ فزيادة كبد الحوت. وأمَّا الولد؛ فإذا سبق ماء الرَّجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرَّجل نزعت الولدَ**». قال: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّك رسول الله. قال: يا رسول الله، إنَّ اليهودَ قومٌ بُهُتٌ، فاسألهم عنِّي قبل أن يعلموا بإسلامي. فجاءت اليهود، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أيُّ رجلٍ عبدُ الله بن سلام فيكم؟**»، قالوا: خيرُنا وابن خيرنا، وأفضلُنا وابن أفضلنا. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟**». قالوا: أعاذه الله من ذلك. فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبدُ الله، فقال: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، قالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، وتنقَّصوه، قال: هذا كنتُ أخافُ يا رسول الله[(٣)].

وأمَّا قساوة القلب؛ فقال الله -عزَّ وجلَّ- فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال كذلك عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨].

---

(١) فتح القدير، مرجع سابق، (١/ ٨٥).

(٢) أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبري: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (ط٢) تحقيق محمود وأحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية: القاهرة مصر، (٢/ ٣٤٢).

(٣) البخاريُّ (مناقب الأنصار: ٣٩٣٨)؛ وورد قبل ذلك في (أحاديث الأنبياء: ٣٣٢٩).

وأمَّا جُبنهم المرتبط بكيدهم؛ فممَّا يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾[المائدة]، وجبنُهم قُرِنَ بذكر اختلاف قلوبهم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾[الحشر]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[الأعراف: ١٦٠].

وقد جاء في كتابهم الذي بين أيديهم في (**سفر العدد**)، في شأن أمرهم بقتال الجبابرة: «فرفعتْ كلُّ الجماعةِ صوتهَا وصرخت، وبكىٰ الشَّعبُ تلك اللَّيلة؛ وتذمَّرَ علىٰ موسىٰ وعلىٰ هارون جميعُ بني إسرائيل. وقال لهما كلُّ الجماعة: ليتنا مِتنا في أرض مصرَ، أو ليتنا مُتنا في هذا القفر؛ ولماذا أتىٰ بنا الرَّبُّ إلىٰ هذه الأرض لنسقط بالسَّيف؟ تصيرُ نساؤُنا وأطفالُنا غنيمةً؛ أليس خيرًا لنا أن نرجعَ إلىٰ مصرَ؟. فقال بعضُهُم لبعضٍ: نقيمُ رئيسًا، ونرجعُ إلىٰ مصرَ»[(١)].

وامتزجت كلُّ تلك الصِّفات مع غيرها ليأتي إضلالهم لأهل الحقِّ، قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۚ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[النساء].

وكذا الإفسادُ في الأرض وإشعال نيران الحروب؛ قال ذو الجلال والإكرام: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤].

ويذكرون في كتبهم أنَّ الرَّبَّ يبارك قتلَ النِّساءِ والأطفال والبهائم؛ وإنَّ (**سفر يشوع**) لخيرُ الأمثلة التي تُضرب؛ وممَّا ورد فيه من الأمثلة النَّماذج: «لأنَّ الرَّبَّ قد أعطاكم المدينةَ، فتكون المدينةُ وكلُّ ما فيها محرَّمًا للرَّبِّ»[(٢)]، ثمَّ تمَّ تنفيذُ ذلك «وحرَّموا كلَّ ما في المدينة من رجلٍ وامرأةٍ، من طفلٍ وشيخٍ حتَّىٰ البقر والغنم والحميرَ بحدِّ السيفِ»[(٣)]

(١) العدد (١٤: ١٤).
(٢) يشوع (٦: ١٦١٧).
(٣) يشوع (٦: ٢١).

وورد في شأن مدينة (**عاي**) الآتي: «فكان جميعُ الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجالٍ ونساءٍ اثني عشر ألفًا جميعُ أهلِ عاي»[(١)]. وليست (عاي) المدينة الوحيدة التي فُعل بها هكذا، بل قبلها أريحا، وبعدها مقيدة ولبنة ولخيش وجازر وعجلون وحبرون ودبير وحاصور.

ويورِدُونَ أنَّ من آخر أعمال موسىٰ قبل موته إرسالُهُ جيشًا قِوَامه اثني عشر ألف لينتقم من المديانيين، قالوا: فتجنَّدوا علىٰ مديان كما أمر الرَّبُّ وقتلوا كلَّ ذكرٍ. ومُلوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم: أويَ وراقم وصور وحور، ورابع: خمسةَ ملوك مديان. وبلعام بن بعور قتلوه بالسَّيف. وسبَىٰ بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم، وجميعَ مواشيهم، وكلَّ أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم، وجميع حصونهم بالنَّار. **فسخط موسىٰ علىٰ وكلاء الجيش**، رؤساء الألوف، ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب. وقال لهم موسىٰ عليه السلام: **هل أبقيتم كلّ أنثىٰ حيّةً؟** إنّ هؤلاء كنّ لبني إسرائيل، حسب كلام بلعام، سبب خيانةٍ للرَّبِّ في أمر فغور، فكان الوباء في جماعة الرَّبِّ. فالآن اقتُلُوا كلَّ ذكرٍ من الأطفال وكلَّ امرأةٍ عرفت رجلًا بمضاجعة ذكرٍ اقتلوها. لكنَّ جميع الأطفال من النِّساء اللَّواتي لم يعرفن مضاجعةَ ذكرٍ أبقوهنَّ لكم حيَّاتٍ»[(٢)].

وثمرة ما سبق: أن يدرك المؤمنُ أنَّ الإفساد في الأرض والسَّعيَ بإيقاد الحروب؛ يتنافىٰ مع تعظيم الرَّبِّ الذي لا يأمر إلَّا بما يُصلح الأرض التي استُخلف فيها الإنسانُ، وإلَّا ما يُصلح معايش النَّاس جميعًا؛ من أحقرها إلىٰ جليلها.

وأسوأ ذلك كلِّه أن يُنسب الإفسادُ إلىٰ أمر الله وشريعته؛ فيُنسب الأمر لله تعالىٰ.

---

(١) يشوع ٨: ٢٥

(٢) العدد ٣١: ٧١٠، ١٤١٨.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث الموجز نخلص إلىٰ ثلاثة أمورٍ رئيسةٍ:

- في القرآن العظيم بيانٌ من طرقٍ وأساليب شتَّىٰ لما ينبغي لله تعالىٰ من التعظيم؛ ومن ذلك الهداية والإرشاد بالشواهد المخالفة للحق، حتَّىٰ تُحذَرَ وتُجتنَب؛ حيثُ لا يُسار علىٰ الخطىٰ ذاتِها، وإلَّا صِير إلىٰ ما صاروا إليه من العقوبة أو العاقبة.
- نموذج بني إسرائيل الذي قُصَّ علينا في القرآن الكريم مليءٌ بنقيض التَّعظيم الواجب لله تعالىٰ، في واجب توحيده، وفي ذاته وصفاته سبحانه وتعالىٰ؛ وفي مُرسَلِيه؛ وفي كتبه وكلماته، وفي أمره ونهيه من تشريعه، وفي إضلال خلقه وإفساد معاشهم.
- إنَّ هذا النموذج القرآني لا يملك اليهود أن يدَّعوا فيه إهانتهم أو ادِّعاء توجيه خطاب كراهية ضدَّهم؛ لأنَّ ما يشهد عليهم من كتبهم هو أضعافٌ مضاعفة ممَّا توهَّموه.